

الباب الأول

في أصول الجاهلية

الفصل الأول

الأمة العربية - موطنها - جنسها - لغتها - منزلة اللغة العربية

بين اللغات السامية - سيادة لغة قريش وأسباب ذلك

obeikandi.com

الباب الأول : العصر الجاهلي

الفصل الأول (الأمة العربية - موطنها - جنسها - لغتها)

- الأدب العربي يعتبر أقدم الآداب العالمية ، وإن لم يصلنا منه إلا أدب المائة والخمسين عاماً قبيل بعثة النبي " صلي الله عليه وسلم " وتطلق علي هذه الفترة تسمية " العصر الجاهلي "

ولا تحسبن أن هذه التسمية مشتقة من " الجهل " بل من الجهالة والطيش ، إذ قد نبع العرب في علوم ومعارف متنوعة تنفي عنهم الجهل ، غاية الأمر أنهم قوم سريعو الغضب يميلون إلي العراك والنزال ، تثور الفتن بينهم فتؤدي إلي حروب قد تدوم أعواماً ولقد عبروا عما يجيش بصدورهم في قصائد بالغة الجودة وكان يضرب بأدبهم الأمثال .

جزيرة العرب^(١)

تشغل جزيرة العرب الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا ، تبلغ مساحتها ربع أوربا تقريبا ، وثلاثة أمثال القطر المصري أي ما يوازي ثلاثة ملايين كيلو متر مربع ، سماها الأقدمون " جزيرة " تجاوزاً مع أن الماء يحيط بها من ثلاث جهات ، ولا تسمى الأرض جزيرة إلا إذا أحاط بها الماء من أربع جهات . فالصحيح فيها " شبه جزيرة " إلا أن الأقدمين تساهلوا فسموها جزيرة .

(١) يراجع في ذلك تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " د/ شوقي ضيف

يتألف عربي هذا الإقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالاً ،
واليمن جنوباً .

- أما الحجاز فقطر فقير قلت مياهه ، وأجذبت أرضه ،
واشتدت حرارته يعتمد أهله علي الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ،
لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيراً بالماء الذي ينزل من السماء ، لأنهم لم
يبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة
إليه ، وأشهر مدنه : مكة ، والمدينة ، والطائف .

- وأما اليمن فقد اشتهر قديماً بالغني والخصب والحضارة ،
كثرت أمطاره وسيوله وعرف أهله بما أوتوا من فن أن ينتفعوا بها ،
فأنشأوا السدود يسيطرون بها علي الماء جمعاً وتصريفاً ، وأشهر
مدنه صنعاء ، ونجران ، وعدن .

- وهذان القطران أعني الحجاز واليمن ؛ أبعد البلاد أثراً في
حياة العرب وفي تاريخهم السياسي والاقتصادي والأدبي .

- وإذا وقع نظرك علي خريطة تصور جزيرة العرب فأوضح
ما تري فيها وأبعده ؛ ما فيها من صحاري في داخلها ، وهي متنوعة
في صبغتها ، فهي سهلة لينة حيناً ، وهي صلبة انتشرت فيها
الحصباء حيناً آخر ، ومفروشة بحجارة سوداء تسمى الحرار حيناً
ثالثاً وهذه الصحاري في جملتها قفر ، تسطع الشمس عليها في الحر
فتتفتح أرضها وأهلها ، ويعتمد أهلها وساكنوها علي ما تنبتة بعض

البقاع عقب المطر فترعاه إيلهم وشياهم وهم يأكلون من لحومها ،
ويشربون من ألبانها ، ويلبسون من أصوافها وأوبارها .

بهم " نسب سكانها "

اعتاد النسابون أن يقسموا الشعوب إلي أجناس ويسموا كل
جنس باسم خاص يجمعها ، واعتادوا أن يسموا الجنس الذي منه
العرب " الجنس السامي " نسبة إلي " سام بن نوح عليه السلام " .

- والساميون كلمة تطلق علي مجموعة من الشعوب في
الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها علي أنها كانت في الأصل
تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلي لغات سميت جميعاً باسم
(السامية) أخذاً من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة ،
وهي تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى الأمة السامية ،
وإنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل أنها ترجع
إلي أصل لغوي واحد .

- وتساءل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه
اللغات السامية كالأكدية والأوگریتية والكنعانية والآرامية والعربية
الفصحى ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد .

- فمنهم من قال إن الساميين استوطنوا بلاد الحبشة وأنهم
نشأوا مع إخوانهم الحاميين ثم هاجروا عن طريق باب المنذب أو
شبه جزيرة سيناء .

- ويرى آخرون أنهم نشأوا في أواسط آسيا أو في أرمينية .
- ويرى بعض المؤرخين أنهم نشأوا في شمالي سوريا .
- كما يرى بعضهم أنهم نشأوا فيما بين النهرين .
- ويرجح المؤرخون ^(١) أن موطنهم الأساسي هو شبه الجزيرة العربية ولما كثروا أو ضاقت بهم رقعة الأرض تشعبوا وتفرقوا فنزحت جماعات منهم علي فترات إلي الشمال والشرق في سوريا والعراق واستقروا هناك .
- ومن قديم وهؤلاء العرب ينقسمون إلي عرب الشمال " الحجازيين " وعرب الجنوب " اليمانيين " ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون في نسبهم إلي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .
- وعرب الجنوب من نسل قحطان ، ويسمون اليمانيين أو القحطانيين ، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلي أن عرب الحجاز تغلب عليهم عيشة البداوة ، وعرب اليمن يعيشون عيشة حضارة .
- ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن فحسب ولا يتعدونها ، بل نعني أن كلاً من الحجازيين واليمانيين عنصر يختلف في نسبه ودمه عن العنصر الآخر ، أو علي الأقل في زعمهم ، ولكن كانت بين

(١) انظر تاريخ مصر والعالم القديم / جمال مختار مطبعة عاطف سنة ١٩٧٦ .

العنصرين صلات ، ورحل قوم من كل فريق إلي موطن الآخر
لأسباب يطول ذكرها ، فكان في الحجاز عرب من اليمن ، وكان في
اليمن عرب من الحجاز .

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلي قبائل :

- فاليمانيون يتفرعون إلي فرعين كبيرين : شعب كهلان ،
وشعب حمير ، فشعب كهلان أشهر قبائله طيئ ، وهمدان ، ولخم
وكندة .

وشعب حمير أشهر قبائله قضاة ، وتتوخ ، وكلب .

- والحجازيون كذلك ينقسمون إلي قسمين كبيرين : ربیعة ،

ومضر فربیعة أشهر قبائله : بكر ، وتغلب

وشعب مضر أشهر قبائله : قيس ، وتميم ، وهذيل ، وكنانة وقريش
وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلي بطون يطول عددها ، وكان بين
هذه القبائل من الحروب والمنازعات والتهاجي ما ملئت بين كتب
التاريخ .

اللغة العربية

كلم منزلتها بين اللغات - اللهجات العربية - سيادة لغة قريش

اللغة العربية: هي إحدى اللغات السامية ، وقد عرفت علي النحو الذي نعلمه حوالي آخر القرن الخامس للميلاد . ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات إلي أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلي اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية .

- وذلك نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها

والوافدين إليها ، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم .

- وهي من أغني اللغات كلاً وأدقها تصويراً وأوسعها مذهباً ، حيث

وسعت جميع أغراض البشر ولم تضق ذرعاً بجميع العلوم والفنون ،

بل تقبلت كل ثمرات القرائح ، وأكبر دليل علي عظمتها نزول كلام

الله بها " القرآن الكريم " .

- نشأت اللغة العربية في أقدم موطن للأمم السامية (الحجاز

ونجد وما إليها) وعلي الرغم من ذلك فإن الآثار التي وصلت إلينا

منها تعد من أحدث الآثار السامية فالذي وصل إلينا من آثار الأكادية

أو البابلية - الآشورية يرجع تاريخه إلي القرن العشرين قبل الميلاد

- والذي وصل إلينا من آثار العبرية يرجع تاريخه إلي القرن الثاني

عشر قبل الميلاد ، والذي وصل إلينا من آثار الفينيقية يرجع تاريخه

إلى القرن العاشر قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية البائدة لا يتجاوز القرن الأول قبل الميلاد ، وأقدم ما وصل إلينا من آثار العربية الباقية لا يكاد يتجاوز القرن الخامس بعد الميلاد ، فالزمن بعيد وعميق ، ولهذا فإننا لا نعلم شيئاً عن طفولة اللغة العربية ، وما مرت به من أطوارها في عصورها الأولى .

- وفي ضوء ما وصل إلينا من آثارها يمكن القول بأنها تنقسم إلى قسمين :-

٢ العربية الباقية

١ العربية البائدة

العربية البائدة :

وتسمى عربية النقوش وتطلق على لهجات كانت تتكلم بها عشائر عربية تقيم في شمال الحجاز على مقربة من حدود الأراميين ، ولتطرف هذه اللهجات في الشمال ، وشدة احتكاكها باللغات الآرامية وبعدها عن المراكز العربية الأصيلة في نجد والحجاز فقدت كثيراً من مقوماتها وصبغت بالصبغة الآرامية وقد بادت هذه اللهجات قبل الإسلام ولم يصل إلينا منها إلا بعض نقوش عثر عليها في مساحة واسعة في " دمشق " .

ومن هذه النقوش

(٢) النقوش الثمودية

(١) النقوش اللحيانية

(٤) نقش النمارة

(٣) النقوش الصفوية

(٦) نقش حوران

(٥) نقش زبد

(٢) العربية الباقية

وهي التي تنصرف إليها كلمة العربية عند إطلاقها ، والتي لا تزال تستخدم عندنا وعند الشعوب العربية الأخرى .

وقد نشأت هذه اللغة ببلاد نجد والحجاز ثم انتشرت في كثير من المناطق التي كانت تشغلها من قبل لغات سامية وحامية وانشعبت منها اللهجات التي يتكلم بها الآن في البلاد العربية .

وأقدم ما وصل إلينا من آثارها هو ما يعرف بالأدب الجاهلي . ويرجع تاريخ أقدمها إلي القرن الخامس بعد الميلاد علي أبعد تقدير ، وهي تمثل هذه اللغة في عنفوان اكتمالها وعظمتها بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء ، وبعد أن تغلبت لهجة من لهجاتها وهي لهجة قریش علي أخواتها بعد صراع طويل معها وصار العرب يؤمنونها في شعرهم وخطابتهم ونثرهم الأدبي .

العربية الفصحى وسيادة لغة قریش

طفولة اللغة العربية - كما مر - ضاربة في مجاهل التاريخ بحيث لم يصلنا من أخبارها شئ والذي وصلنا منها هو نتاج مرحلة متقدمة من النضج والاستواء والسعة والازدهار ، ومعلوم أن قبائل العرب ومنازلهم قد اتسعت وانقسمت تبعاً للبيئة الجغرافية لشبه جزيرة العرب .

ومن المقرر في قوانين اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مساحة واسعة من الأرض وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس استحال عليها الاحتفاظ بوحدها الأولى أمداً طويلاً بل لا تلبث أن تتشعب إلى عدة لغات .

ولم تفلت اللغة العربية من هذا القانون العام فقد انقسمت منذ أقدم عصورها إلى لهجات كثيرة يختلف بعضها عن بعض في كثير من مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات ، واختصت كل قبيلة وكل جماعة بلهجة من هذه اللهجات .

رهم واليك بعض من ما شبر من اللهجات :

- (١) عججة قضاة : وهي قلب الياء المشددة جيماً مطلقاً فيقولون
عج في على ، وعشج في عشى ومن ذلك قول شاعرهم :
خالي عويف وأبو عالج المطعمان اللحم بالعشج
- (٢) كشكشة تميم وأسد وربيعة : وهي أن يلحقوا بكاف المخاطبة
شيئاً في الوقف ، فيقولون : رأيتكش أي رايتك ، وعليكش أي عليك .
- (٣) فحفة هذيل : وكانوا يقلبون الحاء عينا فيقولون : عتى في حتى ،
وعين في حين .
- (٤) الططمانية : وهي لحمير وأهل اليمن وبعض طى وهي إبدال
لام التعريف ميماً .

فيقولون امسهم في السهم وامبر في البر وامصيام في الصيام .
ونقول نحن في عاميتنا امبارح بدلاً من البارحة .

(٥) وينسب إلي بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في
بعض الكلمات فيقولون النات بدل الناس

ويستشهد اللغويون علي ذلك بقول علباء بن أرقم

يا قبح الله بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات

ليسوا أعفاء ولا أكيات (١)

أي شرار الناس - ولا أكياس الخ

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلي بعض القبائل ، ولهجات أخرى لم
تنسب إلي قبائلها ، يقول الدكتور شوقي ضيف : (ولا نريد أن
نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر
من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف
معدودة إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في
الجاهلية لهجات كثيرة سجل منها اللغويون أطرافا ، ومن غير شك
لم يسجلوها جميعا لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعينهم
التنبية علي ما يخالف الفصحي التي نظم بها الشعر الجاهلي ونزل
بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصوا في أكثر الأحوال علي
القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة (٢).

(١) انظر في ذلك كتاب المزهري للسيوطي في مواضع متفرقة ، وكتاب الصاحبى في فقه

اللغة لأحمد بن فارس

(٢) العصر الجاهلي ص ١٣٠ ط السادسة عشرة - دار المعارف

سيادة لهجة قریش

أتیح للهجات العرب المتعددة فرص كثيرة للاحتكاك بفضل التجارة ، وتبادل المنافع ومجاورة القبائل بعضها لبعض وتقلها في طلب الكلاً وتجمعها في الحج والأسواق والحروب الأهلية وغير ذلك فاشتبكت من جراء ذلك اللهجات العربية بعضها مع بعض في صراع لغوي كتب فيه النصر للهجة قریش .

يقول الدكتور ضيف : (يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة علي أن القبائل العربية الشمالية اصطلحت فيما بينها علي لهجة أدبية فصحي ، كان الشعراء علي اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلي هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً) (١)

يقول أبو نصر الفارابي : (كانت قریش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً وأبينها إيانة عما في النفس) (٢)

(١) السابق ص ١٣١ .

(٢) المزهر للسيوطي ج ١ ص ٢١١ .

ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن عبيد الله : (أجمع علماءنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قریشاً أفصح العرب السنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً " صلي الله عليه وسلم " فجعل قریشاً قطان (١) حرمة وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حاجها وغيرهم يفدون إلي مكة للحج ، ويتحاكمون إلي قریش في أمورهم وكانت قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة أسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفي كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلي نحائزهم وسلانقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا تري أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد) (٢)

سبب ابتداء لغة قریش

يقول د/ ضيف : (ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد علي جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك بينما

(١) قطان بالضم / أي سكان .

(٢) انظر الصاحبي في فقه اللغة ص ٢٣ . ط المؤيد . والعجرفية : النقعير وطلب

الغريب الوحشي من الكلام .

إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوي أفئدة العرب في الجاهلية وكان بها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

- ومعني ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية فأن القبائل العربية كانت تربي تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش علي أطرافها ، كما كانت تربي هجوم الديانتين المسيحية واليهودية علي دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها وبذلك تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة) .

يتضح مما سبق أن هناك عوامل كثيرة ساعدت علي تغلب هذه اللهجة نجمها فيما يلي

(١) العامل الديني :-

فقد كانت قريش مجاورة لبيت الله الحرام يقيمون حوله ويقومون بسدائنه ، وكان لهذا البيت قداسته عند معظم القبائل العربية في الجاهلية ، يحجون إليه ليؤدوا مناسكهم ، ويزوروا أصنامهم ،

ويقدموا لها القرابين ، ويشهدوا منافع لهم ، فكان لقريش بذلك السلطان الديني على بقية القبائل العربية .

(٢) العامل الإقتصادي :-

كان سلطان اقتصادي خطير ، فقد كانت معظم التجارة في أيدي القرشيين الذين كانوا ينتقلون بتجارتهم في مختلف بقاع شبه الجزيرة العربية من الشام شمالاً إلى أقصى اليمن جنوباً ، فكانت لهم رحلات تجارية منظمة في مختلف فصل السنة من أشهرها رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام كما حدث بذلك القرآن الكريم إذ يقول :

﴿لِيَلَيْفَ قُرَيْشٍ (١) إِذْ يَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ

(٣) الَّذِي أَطْمَنَّهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)﴾ (١)

(٣) العامل السياسي :-

فقد تحقق لقريش بفضل نفوذها الديني والاقتصادي ، ويفضل موقع بلادها ، وما كانت تمتاز به من حضارة ونعيم نفوذ سياسي قوي في سائر بلاد العرب في العصر الجاهلي ، وفي ذلك يقول أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في رده على الأنصار الذين رغبوا في الخلافة بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - " لا تدين العرب إلى لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله "

(١) سورة قريش / الآيات ١-٤ .

وربما يفهم من قول أبي بكر - رضي الله عنه - أن ذلك كان بسبب الإسلام ، لأنه قال قوله هذا بعد وفاة النبي - صلي الله عليه وسلم - ويرد هذا أن أبا طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام - قال في خطبته عند زواج النبي من السيدة خديجة رضي الله عنها : " الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا ، وجعلنا الحكام علي الناس) (١)

٤) العامل اللغوي

كانت لهجة قریش أوسع اللهجات ثروة وأغزرها مادة ، وأرقها أسلوبا ، وأقربها إلي الكمال ، وأقدرها علي التعبير في مختلف فنون القول لذا قال الفراء : كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية ، وقریش يسمعون لغات العرب ، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به ، فصاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستقبح الألفاظ .

- وقد مر بنا قبل ذلك قول ثعلب من أنها ارتقت عن عننة تميم وكشكشة ربيعة الخ

وكذلك قول أبي نصر الفارابي من أن قریشاً كانت من أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها علي اللسان عند النطق الخ

(١) الوسيط في الأدب العربي / أحمد الأسكندري - مصطفى العناني ط ٧ ص ٢٩

- إذن جميع الظروف التي تقتضيها قوانين التغلب اللغوي كانت مهياة لتغلب لهجة قريش علي اللهجات العربية الأخرى ، فليست ظاهرة تغلبها فذة في التاريخ أو يرجع سببها إلي إرهاب أو إعجاز بل هي ظاهرة عامة في لغات البشر قديمها وحديثها .

- لهذه الأسباب مجتمعة أصبحت لغة قريش هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم وكان الشعراء يتخذونها لغة شعرهم ، وكذلك كان الخطباء يرتجلون بها خطبهم متسامين بها علي لهجاتهم القبلية ، ومما يدعم ذلك ما قاله الرواة من أن العرب (كانت تعرض أشعارها علي قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً)

الفصل الثاني

الأسواق العربية والعالمية

العيادة العربية

obeikandi.com

الأسواق الحربية وأثرها في الحياة الأدبية

كان العرب في الجاهلية يقيمون أسواقاً ، وهذه الأسواق كانت تقام في أشهر السنة للتجارة والتسوق ينتقلون من بعضها إلي بعض ، (فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلي المقارضة بالقول والمفاوضة في الرأي والمباهاة بالشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالمحامد وشرف الأصل ، فكان للعرب من ذلك معونة علي توحيد اللسان والعادة والدين والخلق ، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخي الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلي إفهام سامعيه ، وطمعاً في تكثير مشايحيه ، والرواة من ورائه يطIRON شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء ، فتنتشر معه لهجته وطريقته وفكرته) (١)

وأشهر هذه الأسواق هي عكاظ ، ومجنة وذو المجاز .

أولاً : عكاظ

عكاظ اسم قرية تقع بين نخلة والطائف ، بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتخذت سوقاً سنة ٥٤٠ للميلاد ثم بقيت في الإسلام إلي أن نهبها الخوارج سنة ١٢٩هـ بعدما ضعف شأنها . وكانت هذه القرية يقام فيها السوق في أول ذي القعدة من كل عام إلي العشرين منه وكان يجتمع بها كثير من سادة العرب للمتاجرة ومفاداة الأسري ، والتحكيم في الخصومات ، والمفاخرة والمنافرة

(١) تاريخ الأدب العربي / أحمد حسن الزيات ص ٥ ط نهضة مصر .

بالشعر والخطب في الحسب والنسب والكرم ، وغيرها مما يتفاخر بها في عظيم المصائب والأرزاء .

يقول الزيات عن الأسواق مبيناً أثرها في الحياة الأدبية وخاصة عكاظ : (وأشهر هذه الأسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز وأولاهن أشهر فضلاً وأقوي أثراً في تهذيب العربية ، كانت تقوم هلال ذي القعدة وتستمر إلي العشرين منه فتفد إليها زعماء العرب وأمراء القول للمناجزة والمفاخرة ومفاداة الأسري ، وأداء الحج ، وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته ، إلا عكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجههم إلي الحج ، ولأنها تقام في الأشهر الحرم ، وذلك ولا ريب سر قوتها ، وسبب شهرتها وكان مرجعهم في الفضل بينهم إلي محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضع بيانه وفصح لسانه) (١)

وكان من أشهر المحكمين النابغة الذبياني ، ومن أشهر خطبائها قس ابن ساعدة الإيادي .

وثابت في تاريخ الأدب أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة حمراء من آدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها فكان من الوافدين عليه وهو يقضي بين الشعراء في عكاظ : حسان بن ثابت والخنساء والأعشى .

(١) السابق ص ١٦

فأنشده حسان :

لنا الجففات الغر يلمعن بالضحي

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق

فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا (١)

وأنشدته الخنساء :

قذي بعينك أم بالعين عوار

أم أقفرت مذ خلت من أهلها الدار

وأنشده الأعشي :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسوالي وما ترد سوالي

فحكمت النابغة بينهم جميعا فقال للخنساء : لولا أن أبا بصير - يعني

الأعشي - سبقك ، لقلت إنك أشعر من بالسوق .

- وقال لحسان : إنك لشاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك - أي

استعمل جمع القلة بدلاً من جمع الكثرة - وأضعفت فخرك ، وفخرت

بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، أي افتخر بالفرع دون الأصل وهم

الأبء والأجداد .

فقام حسان وقال : والله لأننا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة :

يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

(١) بني العنقاء وابني محرق / قبيلتان من الأزديين

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وإن خلت أن المنتأي عنك واسع

فخنس حسان لقوله .

وهذه الرواية تؤكد أن أسواق العرب كانت ميادين فسيحة لإنشاد الشعر والتنافس في الإجابة والإيقان وأن الشعراء كانوا آخر الأمر ينقادون لحكم أصحاب الرأي والبصيرة من النقاد فقد رجع حسان عن مبالغته عندما أنشده النابغة شعره .

- وفي أخبار الأعشي في " الأغاني " أيضا رواية تؤكد أنه كان يوافي كل عام سوق عكاظ ، وكان المحلق الكلابي مملقا " فقيراً " فقالت له امرأته : ما يمنعك من التعرض لهذا الشاعر فتعرض له ونحر له ناقته وسقاه ، وخرج الأعشي من عنده ، فلما وافي سوق عكاظ اجتمع الناس حوله وهو ينشدهم
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة

إلي ضوء نار باليفاع تحرق

فما أن انتهى من إنشاده حتي سلم عليه المحلق الكلابي ، فنادي الأعشي في المجلس منوهاً به ومعرفاً ، فما قام المحلق من مقعده إلا وقد زوج بناته جميعاً .^(١)

(١) انظر الأغاني ج ١١ ص ٣٧٩٢ .

ومن اهتمام العرب بالشعر في سوق عكاظ أنهم كانوا يعلقون القصائد السبع المجودة المحبرة افتخاراً بفصاحتها علي كل من يحضر الموسم من الشعراء القادمين من شتي القبائل ، وكانوا يفعلون ذلك إما لتحدي الشعراء أن يقولوا مثل هذه القصائد علي اعتبار أن هذه القصائد هي القمة عندهم في الفصاحة والجزالة ، وإما لحث الشعراء علي الإحسان في قولهم وشعرهم مثلما أحسن أهل وأصحاب القصائد السبع .

- وهناك العديد من أسماء الشعراء اللامعين الذين كانوا يرتادون هذه السوق من أمثال النابغة الجعدي ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، والأعشي ، والخنساء ، والأغلب العاجلي ، والمستوعر .

ثانياً: مجنة

ومجنة موضع أسفل مكة علي بعد أميال منها . وكانت العرب ينتقلون إليها من عكاظ بعد انتهائها ويظلون بها " مجنة " إلي نهاية ذي القعدة ، أي يظلون عشرين يوماً في عكاظ وعشراً في مجنة . ومجنة من الأسواق العربية العديدة التي عرفها العرب قديماً إلا أن الشهرة والفضل يظلان لعكاظ .

ثالثاً : ذو الحِجَاز

- وهو موضع بـ " مني " خلف جبل عرفات وكانت العرب يرتادونها فيقيمون فيها ثمانية أيام من شهر ذي الحجة ، ثم يقفون بعرفة في اليوم التاسع .

- وهكذا كانت الأسواق ذات أثر اجتماعي أيضا ولكنه يتصل بمنزلة الشعر في نفوس العرب، إذ كانوا يقبلون علي استماعه وتلبية داعيه .

- وكان من أثر الأسواق أيضا تهذيب اللغة العربية ، إذ كانت قریش تأخذ من لهجات العرب ما خف علي اللسان وحسن في السمع حتي لظقت لهجتهم ، وجاد أسلوبهم واتسعت لغتهم لأن ينزل بها خير الكلام وهو القرآن الكريم .

أيضا كانت الأسواق حلبة فسيحة للشعراء يعرضون أشعارهم ، مما كان له عظيم الأثر في شحذ همهم ، وخلق روح المنافسة بينهم .

الفصل الثالث

الأماني ، والتمنيات ، والطلبات

الخواص والصفات والخصائص

الصفات والخصائص والتمنيات

الخواص والصفات والخصائص

obeikandi.com

الأدب مفهومه ، وعناصره والمواضع المؤثرة فيه

إن عنايتنا بالأدب ترجع أولاً وقبل كل شئ إلى أهميته الإنسانية العميقة الباقية ، فالأدب سجل حي لما رآه الناس في الحياة وما خبروه منها ، وما فكروا فيه وأحسوا به إزاء مظاهرها التي لها عندنا جميعاً أهمية مباشرة ، ولذلك كان الملوك والأمراء والوزراء يتخذون لأبنائهم الصفوة المختارة من أهل العلم والمعرفة فينقطعون لهم في تهذيبهم وصقل عقولهم بأقوال السابقين ليكون لهم من هذا الرصيد ثروة ينفقون منها ، ومعين يستعينون به إذا ما أعوزتهم الحاجة إلى التعبير .

والأدب هو ذلك الفن الرفيع الذي يصدر جماله عن طبع الكاتب والشاعر في الكلمة يرسلها والقصيدة ينظمها فتقع علي مواطن الحسن من النفس فتثيرها حماسة ونجدة ، وتذيبها حناناً ورقة ، وتهزها أريحية وكرماً .

المدلول اللغوي لكلمة (أدب)

لقد مرت هذه الكلمة بأطوار مختلفة حتي وصلت إلي ما يراد منها اليوم أما عن مدلولها اللغوي فقد جاء في لسان العرب لابن منظور ^(١) (الأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس ، سمي أدباً لأنه يأدب " يدعو " الناس إلي المحامد وينهاهم عن المتبجح ، وأصل الأدب

^(١) لسان العرب ص ٤٣ ط دار المعارف

الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعي إليه الناس مدعاة ، ومأدبة
الأدب : أدب النفس والدرس ، والأدب الظرف وحسن التناول ،
وأدب بضم الدال فهو أديب من قوم أدباء والأدب بسكون الدال
مصدر قولك أدب القوم يادبهم بالكسر أدباً إذا دعاهم إلي طعامه
وفي الحديث (إن هذا القرآن مأدبة الله في أرضه فتعلموا من مأدبته)
إلي غير ذلك من المعاني التي تدور حولها الكلمة .

وقلما نجد باحثاً في الأدب الجاهلي أو كاتباً فيه إلا عني بكلمة
" الأدب " ومعانيها المختلفة في العصور العربية المختلفة .

- وإذا رجعنا إلي العصر الجاهلي ننقب عن الكلمة فيه لم نجد
تجري علي ألسنة الشعراء ، إنما نجد كلمة أدب بمعنى : الداعي إلي
الطعام ، فقد جاء في قول طرفة بن العبد :-

نحن في المشتاة ندعو الجفلي لا تري الأدب فينا ينتقر^(١)

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يدعي إليه الناس ، واشتقوا من
هذا المعني أدب يادب بمعنى صنع مأدبة أودعا إليها .

إذن كلمة أدب في العصر الجاهلي معناها الدعوة إلي الطعام أو
الدعوة عموماً والأدبة والمأدبة بالفتح ، والمأدبة بالضم : كل طعام
صنع لدعوة أو عرس ، قال صخر الغي يصف عقاباً :

(١) المشتاة : الشتاء والدعوة الجفلي : العامة والأدب : الداعي

ينتقر : يختار أناساً دون آخرين .

كأن قلوب الطير في قعر عشمها

نوي القسب ملقي عند بعض المآدب^(١)

كما وردت الكلمة " أدب " في معني الدعوة إلي الحق " كما في قول أبي ذؤيب الهذلي :

وكيف قتالي معشراً يادبونكم علي الحق إلا تأشبهه بباطل

وليس وراء هذه الأبيات ، أبيات أخرى تدل علي أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعني الحسي إلي معني آخر .

أما في صدر الإسلام

فقد استعملت كلمة أدب في معني تهذيب النفس وترويضها لاكتساب المحاسن والمحامد المعنوية ومن ذلك ما أثر عن النبي (صلي الله عليه وسلم) أنه قال : (أدبني ربي فأحسن تأديبي)

ومن دلالتها علي حسن الخلق ما قاله سهم بن حنظلة الغنوي وهو شاعر مخضرم إذ يقول :

لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا

وربما استعملت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعني الخلفي فها هو ذا الأعشي يفتخر بحسن خلقه وهو بصدد الحديث عن ظلم الكلب الذي أسره فيقول :

جروا علي أدب مني بلا نرق إلا إذا شممت حزب بأغمار

^(١) القسب : تمر يابس صلب النوي

- وفي العصر الأموي : نرى الكلمة قد توزعت في دلالتها بين استعمالين هما :-

- ١- تهذيب النفس وحملها علي اكتساب المحامد والمحاسن والأخلاق الكريمة ومن ذلك ما جاء في الحماسة من قول الشاعر : -
أكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقبا
كذاك أدبت حتي صار من خلقي إني وجدت ملاك الشيمة الأدبا
- ٢- استعمالها في التعليم ، فقد أصبحت الكلمة تطلق علي كل ألوان المعرفة من شعر ونثر وخطب وتاريخ وقصص ورواية وحديث وفقه الخ .

يقول الدكتور شوقي ضيف : (ولا نمضي في عصر بني أمية حتي نجد الكلمة تدور في المعني الخلقى التهذيبي وتضيف إليه معني ثانيا جديداً وهو معني تعليمي فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمي " بالمؤدبين " كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية فكانوا يلقنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأناسبهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام ، وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يطلق حينئذ علي الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم) (١)

(١) تاريخ الأدب العربي " العصر الجاهلي " ص ٨

- وعرف حينئذ أن المعلم مؤدب والمتعلم متأدب ، وما يتلقاه المتأدب من المؤدب أدب . وفي نهاية هذا العصر انفصلت العلوم العربية عن العلوم الشرعية وأصبح الأدب يطلق علي الشعر والنثر وما يتصل به من ألوان المعرفة ما عدا العلوم الشرعية ، وهكذا بدأ المفهوم يتجه نحو التحديد والانفصال من غيره مما لا يدخل فيه دخولاً مباشراً .

- أما في العصر العباسي فقد أخذت الدائرة تضيق أكثر فقد خرج عن مفهوم الكلمة " الأدب " النحو والصرف وعلوم اللغة التي اقتضتها الضرورة حرصاً علي الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح ورواية وتفسير وأخبار ونقد وحكم وأمثال وبلاغة وما يلزم ذلك من النحو والصرف بقدر ضئيل ، ومن الكتب التي ظهرت تحمل هذا الطابع آنذاك " طبقات الشعراء " لمحمد بن سلام الجمحي " والبيان والتبيين " للجاحظ ، و " الشعر والشعراء " لابن قتيبة " والكامل " للمبرد .

- وفي نهاية القرن الثالث الهجري أخذت معاني الكلمة الاتجاهات الآتية :

١- المعني الخاص : وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب والأيام والأحكام النقدية .

٢- المعني العام الذي يشمل المعارف الإنسانية والآثار العلمية وأنواع الفنون التي تعمل علي اتساع الثقافة عند المرء .

٣- تلك العلوم الأدبية التي استقلت وصارت غير الأدب الخالص ، وأن كانت لازمة للأديب ليستكمل بها ثقافته ويستعين بها علي إنشاء الأدب وفهمه ونقده كالأنساب والأخبار واللغة والفلسفة التي نقلت عن الثقافات الأخرى كاليونانية والفارسية والهندية .

٤- أدب النفس : وهو كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل وسيرة محمودة .

- وفي أواسط هذا العصر وبعد أن اتسعت آفاق الشعر والنثر وتطورت أساليبهما نجد الأدب قد قطع شوطاً ملحوظاً من التخصص فأصبح له معني خاص يدل علي : النتاج الجيد من الشعر والنثر وما يتصل بذلك من الرواية والتراجم للأدباء والوقوف علي أخبارهم وحياتهم والمؤثرات المهمة فيها ، وتبعاً لذلك وما جد من أمور نشطت حركة النقد واتسعت حتي أثمرت مجموعة من الكتب : كالصناعتين لأبي هلال العسكري ، والموازنة للآمدي ، والوساطة للقاضي الجرجاني .

ولما كثرت المعارف الإنسانية من طب وفلك ورياضة وفنون وبيان وفصاحة الخ . ولما كان الإمام بها مهما أطلق بعض الباحثين علي الأدب آنئذ أنه : الأخذ أو الإمام من كل فن بطرف . ولعل الحاجة هي التي دعت إلي ذلك .

فنظراً للفتح والاختلاط وترجمة علوم الثقافات الوافدة وكان من أسباب التحضر والتقدم معرفة ذلك فانتسح مفهوم الأدب العام ليجاري ركب الحضارة ولعل الأقرب إلي الواقع أن الأدب شعره ونثره للتقريب الواسع .

- وظل مدلول الكلمة بعد ذلك يضيق ويتحدد حتي أخذت الكلمة في أواخر القرن الخامس مدلولها الذي هو أقرب إلي مدلولها في عصرنا الحالي وهو : فن الكلام الجميل شعراً ونثراً والذي يصور به الأديب الطبيعة والحياة وما يعن له من أمور يصورها من خلال أخيلته وإحساسه بها تصويراً يحقق في نفوس القراء والسامعين المتعة واللذة الفئيتين .

ويري المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " أن كلمة " أدب " مقلوبة عن " دأب " ويقول أن العرب جمعت دأبا علي آداب كما جمعوا بئراً علي آبار ورأيا علي آراء ثم عادوا فتوهموا أن آدابا جمع أدب ، ثم دارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيره .

وهذا رأي افتراضي وضعيف ومن أسباب ضعفه أنه لم يرد في المعاجم اللغوية أو في أي نص جمع كلمة الدأب علي آداب ولكن ورد في كتب اللغة جمع بئر علي آبار وآبار . كما أن كلمة الدأب لم ترد بمعنى الأدب لأن الدأب هو العادة والشأن والاستمرار بالحسن أو بالسوء بينما الأدب خلق كريم

تاريخ الأدب:

هو علم يبحث عن أحوال اللغة وأدائها نثرها ونظمها في عصورها المختلفة وكذلك ما أنتجته قرائح أبنائها من بليغ القول نظماً ونثراً من حيث رفعتها وضعفها وما عرض لها من أسباب الصعود والهبوط .

- ويعني كذلك بتاريخ النابهين من أهل الكتابة واللسن وما لهم من أثر بين في الأدب والمؤثرات التي جعلتهم ينتحون الأدب بهذه الصفة من القوة أو الضعف وهو يقف علي الأسباب العامة لارتقاء الأدب والعكس ، كما يقف بك علي أساليب اللغة وفنونها ويكشف لك فكر أهلها وأحوال نابغيها وما لهم من آثار محمودة ينبغي أن يحتذي بها كل من أراد أن يكون مثلهم .

- وهو الذي يتعرض للظواهر الأدبية المختلفة في عصر من العصور أو في بيئة من البيئات أو طور من الأطوار أو فيها كلها بالبيان والتحليل من حيث الرفعة والنهضة والضعف والانحطاط .

- وأما تعريفه بمعناه العام (فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ، ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة ، أو تعليماً لعلم أو فن ، أو تخليداً لحادثة أو واقعة فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن .

الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها (١)
أذن لتاريخ الأدب معني خاص وتعريف خاص ، ومعني عام
وتعريف عام .

فهو بمعناه الخاص : التاريخ للشعراء والكتاب تاريخاً خاصاً بالأدب
وتطوره وظواهره مع مقدمات تاريخية واجتماعية وثقافية عامة مع
بحث شخصيات الأدباء ومذاهبهم الفنية بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً .
أما معناه العام فهو التاريخ لأعلام الثقافة والفكر الأدبي في الأمة
تاريخاً عاماً .

- ومؤرخ الأدب العربي إما أن ينهج هذا النهج الواسع فيؤرخ
للأدب بمعناه العام فيتعرض لكل من أثروا في غيرهم أو تأثروا
بغيرهم في شتي المعارف وفي أغلب العصور ، وإما أن ينهج النهج
الخاص فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتاب مفصلاً الحديث في
شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية
ودينية وسياسية .

وقد درج المؤلفون من أدباء العربية علي التاريخ بالمعني الخاص
ومن الذين برزوا في هذا المجال - ابن خلكان في كتاب " وفيات
الأعيان " والكتبي في كتابه " فوات الوفيات " والسيوطي في " بغية
الوعاة " وياقوت الحموي في " معجم الأدباء " والقفطي في " تاريخ

(١) تاريخ الأدب العربي / الزيات ص ٤

الحكماء " ، وأبو الفرج الأصفهاني في " الأغاني " ، والشعالبي في " يتمية الدهر " ، والفتح بن خاقان في " قلائد العقيان " ، والكاتب الأصفهاني في " خريدة القصر " والمقري في " نفع الطبيب " .

- بيد أن نسبة هذه الكتب إلي تاريخ الأدب ظلم لتاريخ الأدب ؛ لأنها في جملتها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والغرض والأسلوب .
- وهي كذلك لا تذكر ما حدث للشعر والنثر من تحول وتقلب ، وما نجده من ذلك في كتاب " العمدة " لابن رشيق القيرواني ، وكتاب " المثل السائر " لابن الأثير ، " والمقدمة " لابن خلدون والفهرست لابن النديم ليس إلا نتفاً يسيرة ونبذاً وجيزة وردت مبعثرة لا صلة بينها ولا رابط .

والأدب لا يكتفي منه بالنتف اليسيرة ولا بالنبذ الوجيزة التي لا رابط بينها ولا بالأحكام أو التراجم المجملة وإنما لا بد فيه من التفصيل والتحليل وربط هذا بذلك .

- ولما كان الأدب كائناً حياً يتأثر بالمؤثرات العامة فإن فريقاً آخر ينبري مؤرخاً لهذا الأدب فيتعرض لأحواله من قوة وضعف ويحيط خبراً بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وثقافية إلي غير ذلك من المؤثرات التي عملت فيه ، كما يدرس عصوره المختلفة ، ومن يقوم بذلك هو المؤرخ الأدبي الذي يحتاج إلي ثقافة

تمتاز بالسعة والإحاطة والشمول وهذا الفريق هم المستشرقون ومن سار علي نهجهم من مؤرخي العرب وكان ذلك في بداية العصر الحديث .

- إذن ظل هذا العلم بمعناه الواسع مجهولاً إلي القرن قبل الماضي حيث جاء المستشرقون فجمعوا أشتات هذه المسائل ونسقوها ورتبوها بعد أن مهدوا لذلك بمقدمات تاريخية كمدخل لفهم هذه المسائل .

- فهذا " كارل بروكلمان " المستشرق الألماني قد أرخ للأدب بمعناه الشامل فكتابه " تاريخ الأدب العربي " أشبه بدائرة معارف عامة تستقصي الآثار المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها للفلاسفة والعلماء العرب من كل صنف وللشعراء والكتاب من كل نوع .

أنه أرخ للحياة العقلية والشعورية في الأمة تاريخاً عاماً ، وقد نسج علي منواله : جرجي زيدان في كتابه " تاريخ آداب اللغة العربية " وفؤاد سزكين في كتابه " تاريخ التراث العربي "

ومن هؤلاء المستشرقين ، المستشرق الإيطالي " كارلو نالينو " الذي جمع في كتابه " تاريخ الآداب العربية " دراسة شعر المشركين في صدر الإسلام والغزل والأراجيز وشعر الفتن السياسية والشعر القصصي والمرائي .

- ومن المؤرخين الذين ساروا علي نهج المستشرقين غير جرجي يدان ، وفؤاد سزكين ، طه حسين ، وحفني ناصف ، والشيخ أحمد لإسكندري ومحمود مصطفى ، ومصطفى صادق الرافعي ، السباعي بيومي ، والزيات

- وقد دخل في دراسة تاريخ الأدب في العصر الحديث دراسات بموضوعات أخرى من أهمها :

(١) الترجمة من اللغات الغربية ، والبعثات وأثرها في ازدهار الأدب وآثار الترجمة في الأدب والفنون .

(٢) المستشرقون وآثارهم واستكشاف أهدافهم من دراساتهم إنصافاً للعرب ولل فكر الإسلامي والحضارة العربية أو تجنياً عليهم ، وتصدي العلماء العرب لهؤلاء المستشرقين .

(٣) المقالات المختلفة والصحافة ودورها في ازدهار هذا الفن .

(٤) القصة والأقصوصة والرواية والمسرحية ، ودراسة المذاهب الأوروبية نشأتها وآثارها كالكلاسيكية والرومانتيكية والواقعية والرمزية الخ .

العوامل المؤثرة في الأدب:

جاء الأدب الجاهلي ممثلاً ومصوراً للحياة الجاهلية أصدق تمثيل وأوضح تصوير ومعبراً عن كل جوانب الحياة منها سياسية كانت أو اجتماعية أو دينية أو عقلية ، وما ذلك إلا لأنه نبع منها فصبغته بصبغتها وطبعته بطابعها .

من أجل ذلك كان الوقوف علي أهم العوامل المؤثرة في الأدب الجاهلي أمراً ضرورياً ، لأن دراستها وفهمها يساعد كثيراً علي إدراك الدوافع النفسية المتباينة ، ويكشف الدلالات المختلفة والخصائص العامة .

إن دراسة هذه العوامل أساس هام في الكشف عما في هذا الأدب .

مفهوم أهم هذه العوامل:

(أ) البيئة : البيئة هي التي يلازمها الإنسان في حلة وترحاله ، ويحيا مع صورها وما حوت من ألوان مختلفة فتعكس علي طبيعة الإنسان بما تحويه من حرارة وبرودة وخصب وجذب ، ورقة وغلظة ، وسكينة وجلبية ، فطبيعة تلك البلاد " أعني بلاد العرب "معظمها صحراء وأرض شاسعة من الفضاء يندر فيها الكأ ، لذا يكثر فيها الارتحال بين الحين والحين انتجاعاً للرزق وبحثاً وراء الكأ في أرض غيرها ، ولهذا ظهرت الغلظة والوعورة في طباع أكثرهم بسبب ما كان يقابل من مغامرات وغارات فقد كان يمشي طويلاً في

طرق طويلة لا يصادف مؤنسا ، فيتصور الجن والغول ، وكل هذا
ينعكس علي فكرهم وآدابهم ، وهذه الحياة التي يحيها الجاهلي
يستيقظ في الصباح فتقع عينه علي الإبل والآكام والصحراء والسماء
والبرق والرعد والمطر والليل والنجوم والأماكن التي ارتحل عنها
أهلها بعد أن أقاموا بها زمناً ، وربما عششت بعض الذكريات من
هذه الديار في فكر الشاعر ووجدانه فتركت في نفسه أثراً قد لا
يمحي .

- وعدة العربي في الصحراء الجمل والفرس وعليهما يعتمد في
حربه وسلمه كل هذا له أثره في توجيه الشعر والأدب عموماً نحو
وجهة معينة .

- فيها هو ذا امرؤ القيس يصف فرسه قائلاً :

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلود وصخر حطه السيل من عل
كميت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
علي الذبل جياش كأن اهتزاه إذا جاش فيه حمية علي مرجل

- وهذا عنتره وزهير وغيرهم يصفون النياق والحياد وما ذلك إلا
أثراً من آثار البيئة التي عاشوا بين أحضانها وتعاملوا معها .

- وهؤلاء بدورهم يختلفون عن أولئك الذي يعيشون في بيئة
متحضرة طيبة الجو رغبة رقيقة ، فإنك لتجد هؤلاء في حالة أكثر
هدوءاً واتزاناً ورقة ونعومة ، وهذا بلا ريب يساعد علي توفر

الاعتدال ، وكل هذه الآثار تنعكس علي الأدب فتتوفر فيه عذوبة الألفاظ ورقة الخيال وسهولة الأسلوب وبعده عن خشونة والوعورة والمعاني الوحشية والخيال المحدود .

يقول صاحب الوساطة : (وكان القوم يختلفون وتتباين أحوالهم ، فيرق أحدهم ويصلب شعر الآخر ، ويسهل لفظ آخر ويتوعر منطق غيره وإنما ذلك بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلقة ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودمائة الكلام بقدر دماثة الخلق ، وأنت تجد ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك وتري الجافي والجلف منهم كز الألفاظ معقد الكلام وعر الخطاب حتي أنك ربما وجدت ألفاظه في صوته ونغمته وفي جرسه ولهجته ومن شأن البداوة أن تحدث بعض ذلك ، ولأجله قال النبي " صلي الله عليه وسلم " : (من بدا جفا) ولذلك تجد شعر عدي بن زيد وهو جاهلي أسلم من شعر الفرزدق ، ورجز رؤبة وهما أهلان لملازمة عدي الحاضرة وإيطانه الريف وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ، وتري رقة الشعر أكثر ما تأثرك من قبل العاشق المتيّم والغزل المتهالك فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة وانضاف الطبع إلي الغزل فقد جمعت لك الرقة من أطرافها ، فلما ضرب الإسلام بجيرانه واتسعت ممالك العرب وكثرت الحواضر ونشأ التأدب والتظرف اختار الناس من الكلام ألينه وأسهله) (١)

(١) الوساطة / القاضي الجرجاني ص ٢٣ . ٢٤

(ب) الحياة الاجتماعية والسياسية :

كان سكان الجزيرة العربية يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هي الوحدة التي يبني عليها نظام حياتهم . والنظام القبلي ينتظم في سلوكه الأفراد في البادية ، فهذا النظام أشبه ما يكون بالدولة المستقلة علي صغرها وتحكم نفسها بواسطة رئيسها أو سيدها ، وله الكلمة النافذة والقضاء الفصل ، ينزلون علي رأيه ويخضعون لأمره ، ويستجيبون لندائه ، ولا بد له أن يجمع من الصفات ما يؤهله لهذه المنزلة كالشجاعة والكرم واللسن ، وسداد الرأي وبعد النظر ويحسن أن يجمع إلي ذلك حسن المنظر وضخامة الهامة ، ومثانة البنيان وهذا يدل علي وعي العرب الشديد فهذا يقوم مقام الانتخاب الناجم عن النظرة السليمة ، والرئاسة بهذه الطريقة بعيدة عن الوراثة وفي ذلك يقول الشاعر :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وقارسها المشهود في كل موكب
فما سودتني عامر عن وراثة أبي الله أن سمحوا بأب ولا أب
ولكنني أحمي حماها واتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب
أما القبيلة : فهي مجموعة من الأفراد ينتسبون إلي أب واحد ، وينتمون لجد واحد هو جدهم الأكبر ، وقل أن ينسب إلي القبلية من لم يساهمها في نسبها إلا عن طريق الحلف أو الولاء .

والقبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات .

(١) الأحرار " الصرحاء " : وهم أبناء القبيلة الأصليون الذين يربط بينهم الدم والنسب وهم عمادها وقوامها يتمتعون بكل الميزات وعليهم حمايتها والدفاع عنها .

(٢) العبيد : وهم أسري الحرب الذين عجز أهلهم عن فدائهم ، أو الرقيق المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة .

(٣) الموالي : وهم العبيد الذين اعتقوا ولكن تظل هناك صلة بين المعتق والمعتق تسمى الولاء .

- وتُسود أفراد القبيلة جميعاً فكرة العصبية ، فكل فرد يتعصب لقبيلته ويعني بحفظ نسبه ويفتخر به ويحنو علي من يشاركه فيه ، ويسير علي منهج قبيلته أصابت أم أخطأت .

والقبيلة تحميه من العدوان ، وتطالب بدمه إن جني عليه ، ومرجع الأفراد في إقامة العدل بينهم علي حسب عرفهم وتقاليدهم هو سيد القبيلة .

- وعلاقة القبيلة بالقبيلة الأخرى ، علاقة عداة - غالباً - تغير عليها وتغتم من مالها ورجالها والأخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها ، والقليل منها علاقات حب وسلام وحسن جوار .

- أما عن أخلاقهم وصفاتهم فحدث ولا حرج فقد كانوا بدواً ، ولأهل البدو صفات خاصة يمتدحون بها ويكثرون في شعرهم من ذكرها

والتغني بها ولعل خير ما يمثل هذه الصفات والخصال خصلة الكرم التي بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإمحال فقد كان الغني يطعم الفقير وكثيراً ما كان الغني يذبح إبله في سنين القحط يطعمها عشيرته ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً علي أعالي الجبال ليهتدي إليهم التائهون والضالون في الفياقي

- وكانوا لا يقدرّون شيئاً كما يقدرّون الوفاء فإذا وعد أحدهم وعداً أوفي به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار الذي استجار بهم ، وإغاثة الملهوف وحماية الضعيف ، والعفو عند المقدرة ، ، كما كانوا يمتدحون بالأنفة والعزة والكرامة وقلت الشكوي من الهم ، وبعد الهمة ، وسعة الأمل ، والمروءة وهو لفظ يجمع قانون الشرف عماده الشجاعة والكرم والوفاء .

- علي أن هناك آفات كانت تشيع في هذا المجتمع الجاهلي ، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار وتعرض لذلك الكثير من الشعراء في أشعارهم وخاصة الخمر .

يقول طرفة بن العبد :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاقي طريقي ومتلدي
إلي أن تحامنتي العشيرة كلها وأقردت أفراد البعير المعبد

وأكبر دليل علي شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التي هاجمتها في القرآن الكريم ، وما وضعه الإسلام لها من عقوبات صارمة حتي يكف العرب عنها .

ج) الحياة الدينية

كان للعرب في الجاهلية دين ضعيف ، لا يخلصون له ولا يصل إلي أعماق نفوسهم ، وانتشرت الوثنية في أكثر قبائل العرب فقد كانوا يعبدون الأوثان والأصنام ويشركون مع الله آلهة أخرى ، كما كان بعضهم يعبد النجوم والكواكب وقلما تجد في أشعارهم شرحاً لعاطفة دينية ، وقل أن تري فيه ذكر الله وتمجيده وقل - أيضا - أن تري فيها وصفاً لما كانوا يعبدون .

ويشير القرآن الكريم إلي بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم فيقول عز وجل " أفرايتم اللات والعزي ومناة الثالثة الأخرى " ويقول سبحانه وتعالى " ولا تدرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً " . ووراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلي الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً ^(١) وكان أعظمها عند القرشيين هبل .

(١) ذكر ذلك ابن الأثير في فتح مكة ج٢

كما انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع الجزيرة العربية ، فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها (يثرب) وهي التي سميت بعد (بالمدينة) وكانت اليهودية فيها آمنة مطمئنة ، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد ، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية ومن أشهر شعراء اليهودية السموال بن عادياء .

- وانتشرت النصرانية في منازرة الحيرة وفي غساسنة الشام وسائر قبائله وزاحمت اليهودية في اليمن ، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة " نجران " وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم عدي بن زيد ، وقس بن ساعدة الإيادي .

ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية .

- كما ظهرت نحل أخرى غير الديانات السابقة ومنها : الصابئة ، والمجوسية والحنيفية ، وتلك الأخيرة رأي فيها بعض عقلاء العرب من ذوي النظر الثاقب والفكر المستنير أنها تأخذ بأيديهم من هذه الحيرة وكثرة الأديان والمذاهب والملل وتوصلهم إلي الإقرار بوجود

الله الواحد مصرف الكون ولهذا لم يركنوا إلي شئ من ديانات العرب من هؤلاء ورقة بن نوفل .

- وقد تركت هذه الأديان بصماتها في أشعار الجاهلية ففيها تری فكرة البعث والحساب وعلم الله لما في الغيب والنفوس فهذا عبید بن الأبرص يقول :

من يسأل الناس يجرموه وسائل الله لا يخيب

وهذا زهير بن أبي سلمى يقول :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب ويدخر ليوم الحساب ويعجل فينقّم

وهذا قول امرئ القيس (إن صح أنه من شعره)

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها

روي بها من قحول الأرض أيباسا

(د) الحياة العقلية " المعارف "

من البدهي أن الحياة تساعد المرء علي معرفة وتحصيل بعض المعارف ، وهذه المعارف لم تأت جملة ولم يصلوا لأیها دفعة واحدة بل هي ضرورب جميعها من المعرفة الأولية تقوم علي التجربة الناقصة ولا تؤسس علي قاعدة ولا علي نظرية . فهم في غالبيتهم

بدو .

كانت المدن علي النخوم واليمن متحضرة بعض التحضر فالآثار التي عثر عليها في اليمن والحيرة ، وما نقل عن أهلها يدل دلالة صادقة علي أنهم كانوا علي حظ من الفن والعلم غير قليل فأهل الحيرة تسرب إليهم شئ من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم ، والغساسنة في الشام تسرب إليهم شئ من حضارة الرومان واليونان وآدابهم ، واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان ولها معهم جميعاً صلات تجارية أما ما عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً .

وعلي الإجمال فقط كانت للعرب معرفة بالأنساب والأيام وما ينطوي عليها من المناقب والمثالب ومعرفة أخبار الأمم ومعرفة النجوم والفلك ومعرفة شئ من الطب كالكي بالنار وبعض العقارات النباتية وما يتصل بذلك من معارفهم البيطرية وخاصة فيما يتصل بالإبل والخيل

وكانت العرب علي علم خاص بالفراسة (وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله وأقواله علي أخلاقه ومناقبه) والقيافة وهي (تتبع الأثر في الأرض والرمل ليتعقبوا من يضل منهم في الصحراء أو ليتعقبوا الأعداء الذين يغيرون عليهم) .

وإلي جانب ذلك مما تقدم أضاف العربي ما عرفه من خلال رحلاته من قصص وأخبار سمعها بنفسه أو شاهدها أو حكيت له ومنها أخبار الملوك ، والقصص والأساطير ومما وعته ذاكرتهم ونقله الآباء إلي الأبناء ووعته أذهان الرواة من الحكمة .

وتمتلي كتب الأمثال والأدب بما دار علي لسان لقمان وغيره من حكماء الجاهلين من حكم مثل قول أكنم (مقتل الرجل بين فكيه) وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه الحكم مثل قول طرفة بن العبد في معلقته :

أري العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
وممن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودي ولييد وعبيد بين الأبرص
وفي خاتمة معلقة زهير طائفة كبيرة منها مثل قوله :-

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي علي الناس تعلم

وقد وقف شعراؤهم كثيراً عند فكرة الموت والحياة والدهر وما يرمي به الناس ، وكانوا يرون أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه ، وكثيراً ما يذكرون من سبقهم إليه متخذين من ذلك العظة

يقول قس بين ساعدة :

بين من الشعوب لنا بصائر
للموت ليس لها مصادر
تسعى الأصاغر والأكابر
ي ولا من الباقيين غابر
لثة حيث صار القوم صائر

في الذاهبين الأول
لما رأيت مواردا
ورأيت قومي نحوها
لا يرجعن قومي إلى
أيقنت أنني لا محاردا

وعلي هذه الشاكلة كانت لهم ضروب من التفكير في حقائق الحياة
والموت ، كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم
ومعاشهم وليس في ذلك كله فلسفة ولكن فيه من البساطة والفترة
وما يدل علي حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .^(١)

(١) العصر الجاهلي / شوقي ضيف ص ٨٨

الأدب الإنشائي والوصفي

قسم النقاد الأدب إلي أقسام ، فالأديب عندما يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن شعوره العميق وأحاسسه المرهف وتنساب الخواطر والعواطف التي تتنوع في نفس الشاعر أو الأديب وتأخذ أبعاداً متفاوتة وتتداخل الأفكار التي تغذي هذه الشعاعرية ، فتتضح الصورة أمام الشاعر أو الأديب عندئذ قد تأتي مرحلة الإفراز اللغوي مباشرة لتخلص الشاعر من هذه الشحنة القوية فيعبر الأديب عن شعوره الداخلي أو خواطره النفسية وانفعالاته نحو ما يفكر فيه من أمور الحياة بالشعر أو النثر فهذا هو الأدب الإنشائي لان الأديب حينئذ ينشئه إنشاء ويكون قد صور ما عبر عنه تصويراً مباشراً من خلال وجدانه فتخرج تجربته ممتزجة بعاطفته ومشاعره معبرة عن شخصيته فهو يفضي بذات نفسه ويستطيع بما أوتي من قدرة أن ينقل هذا التأثير إلي غيره ، وعلى قدر تصويره وقدراته الفنية يكون هذا التأثير .

هو الأدب الإنشائي

هو الأدب الذي يعبر فيه الأديب عن خواطره وأحاسيسه نحو الطبيعة سواء كانت هذه الأحاسيس وتلك الخواطر مصدرها فيض من نبع داخلي في نفسه أم تتمثل فيما حوله من هذه الطبيعة ، فموضوعه إذن الطبيعة الداخلية والخارجية (في نفس الأديب وخارجه)

وموضوعات الأدب الإنشائي : الشعر بما يجمع من فنون كالمدح والوصف والهجاء ، والنثر من قصة ومقالة ومسرحية وخطابة وكتابة بأنواعها .

هو الأدب الوصفي "النقد الأدبي"

هو الذي يتلقى الأدب الإنشائي ويضعه علي شريحة البحث والتأمل ويحاول استخراج أسباب ومواطن الجودة والحسن في النص الأدبي أو مواطن القبح والضعف فيه ، وهو ما اصطلح علي تسميته (بالنقد الأدبي) .

- وموضوع الأدب الوصفي كما هو واضح هو الأدب الإنشائي .

هو خلاصة القول أن الأدب نوعان :

١) أدب إنشائي وهو التعبير الإنشائي الشعري أو النثري عما يجول بالخواطر أو يختلج ويخالط الجوانح نحو الطبيعة الداخلية التي يحسها الإنسان من الميول والأهواء أو الطبيعة الخارجية التي يراها في السماء والنجوم والبحار والجبال الخ

- وينقسم الأدب الإنشائي إلي قسمين

أ) أدب ذاتي وهو الذي يعبر فيه الأديب عن ذات نفسه وخواطره ومشاعره وآرائه وتأملاته وإحساساته ومن ذلك الشعر الغنائي .

(ب) أدب موضوعي : وهو الذي يستعير فيه الأديب السنة الآخرين يتحدث عنهم بها ويعبر عما يجول بخواطرهم ومن ذلك الأدب التمثيلي والقصصي .

(٢) وأدب وصفي: وهو ما يتناول الأدب الإنشائي بالوصف والتحليل والحكم عليه بالرضا والقبول أو بالسخط والرفض ، وهذا الحكم بالرضا أو بالسخط لا يصور طبيعة لا داخلية ولا خارجية ولا يصور تأثر الأديب بها ، بل أنه يتعرض لوصف ما قيل في تصوير الطبيعة ، وهو ما يسمى " نقداً "

- ومن الملحوظ أن الأدب الوصفي وجد بعد الأدب الإنشائي ، لأنه مبني عليه وقائم به ، وهذا النوع من الأدب " الوصفي " يرتقي بارتقاء العقل الإنساني ، واستكشاف واستبطان الأمور والتعرف علي داخائلها .

- وينقسم الأدب الإنشائي إلى قسمين : شعر ونثر .

فالشعر : هو الكلام الموزون المقفي المعبر عن الأخيلة البديعة والصور المؤثرة البليغة .

والنثر : هو الكلام الخالي من الوزن والقافية المعبر غالباً عن الحقائق ، وصدق التعبير .

وهو نوعان : مسجع : إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية (١)

ومرسل : أن كان غير ذلك

(١) تاريخ الأدب العربي / الزيات ص ١٨

obeikandi.com

الفصل الرابع

فَقُرْءَةً سَبْعَ الشُّجْرِ لِلنُّجْرِ حَتَّى يَصْنَعَ الْجَدَّ تَمِيْنُ
وَأَدَلَّتْهَا ، وَأَيْنَا فِيهَا

obeikandi.com

❖ تقديم بين الشعر والنثر :-

فيما سبق تعرضنا لتعريف الشعر والنثر باقتضاب ، وسوف نفسح المجال هنا لشيئ من التفصيل ثم نعرض علي نظرية أسبقية الشعر للنثر ومن قال بها وأدلته ، والرأي في ذلك .

- كلمة الأدب تشمل فيه : الشعر والنثر ، وإذا كانت الفنون الجميلة تصور الطبيعة وجمالها بوسائل مختلفة ، فإن الشعر هو تصوير للتجارب الشعرية بالألفاظ والمعاني .

وقد عرف العروضيون الشعر بأنه : الكلام الموزون المقفي ، وهذا لا يستقيم تعريفاً للشعر لأن هذا التعريف يدخل في دائرته النظم البارد بلا عاطفة ولا خيال وكذلك العلوم المنظومة كألفية ابن مالك وغيرها مما هو بعيد عن دائرة الشعر الذي هو في حقيقته : التعبير الجميل عن الحياة والنفس .

- أو هو كما عرفه البعض : ما أشعرك وجعلك تحس بجوانب النفس البشرية .

- أو هو كما عرفه البعض التعبير الجميل الذي يصور الطبيعة والحياة معتمداً علي العاطفة والخيال أكثر من اعتماده علي الفعل والفكر .

- وقد جاء في الأدب الجاهلي لطفه لحسين^(١) أن الشعر : هو الكلام الذي يعتمد فيه صاحبه علي الخيال ويقصد فيه إلي الجمال الفني

(١) الأدب الجاهلي / طه حسين ص ٣٠٩ الطبعة العاشرة

الذي يخلب الألباب ويستهوِي القلوب ، أو هو الكلام المنظوم الذي يعتمد فيه صاحبه على الخيال ويقصد فيه إلى الجمال الفني .

- أما النثر الفني الذي يدخل في دائرة الأدب فهو الكلام الجميل المتحرر من الوزن والقافية المعتمد على الفكر والعقل أكثر من اعتماده على العاطفة والخيال حتى إن هذين العنصرين " العاطفة والخيال " إذا غلبا على النثر فإن بعض الأدباء المحدثين يروق لهم أن يسموا هذا النثر بالشعر المنثور .

❁ أي النثرين أسبق الوجود ؟ الشعر أم النثر ؟

يرى بعض النقاد المحدثين من أمثال الأساتذة : أحمد أمين ، وطه حسين ، وعبد الوهاب عزام ، وحامد مصطفى ، أن الشعر أسبق إلى الوجود من النثر ، ووجتهد في ذلك

- (١) أن الشعر أقدم الآثار الأدبية عند جميع الأمم والشعوب.
- (٢) وفرة الشعر الجاهلي في الأدب العربي إذا قيس بالنثر الجاهلي .
- (٣) أن الشعر وحي النفس ولغة القلب وترجمان العاطفة ومرآة الوجدان ، وهذه الأشياء وجدت مع عهود الإنسانية الأولى ، أما النثر فلغة العقل ، والفكر الناضج والتطور الحضاري ، وهذه الأمور تأتي تالية لعهود النشأة الأولى .

(٤) أن الشعر تعبير عن حاجات ضرورية وغريزية فيه كحاجته إلى إظهار الفرح أو الحزن في المناسبات المختلفة وحاجته إلى الترويح أو التخفيف عن النفس بعد تحملها المتاعب طوال اليوم ، فالحياة

وَقَتْنُذْ كَانَتْ شَاقَّةً ، وَمِنْ شَأْنِ الشُّعْرِ وَالغِنَاءِ تَحْقِيقَ ذَلِكَ كَمَا يَقُولُ
بَعْضُهُمْ^(١)

- أما النثر فقد تأخر عن ذلك مراحل لأنه يعبر عن حاجات الإنسان
المتحضر الذي حاز جانباً من الثقافة وقدرأ من التعليم بعد الاهتداء
إلي الكتابة والتسجيل لشئون الحياة المهمة .

- ويرى بعض العلماء والأدباء أن النثر أسبق إلي الوجود من الشعر
ومن أصحاب هذا الرأي " أبوبكر الباقلاني " صاحب كتاب أعجاز
القرآن ، وابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة في محاسن
الشعر وآدابه ونقده ، وحجتهم في ذلك ، أن الشعر مقيد بأوزان
وقواف والنثر مطلق والعقل يقضي بأسبقية المطلق علي المقيد .

ويؤيد هذا الرأي من المحدثين

السباعي بيومي ، ومحمد هاشم عطية ، وأحمد الإسكندراني ،
ومصطفى عناني .

- وإذا كان أصحاب الرأي الأول يحتجون لقولهم بأن الشعر أقدم
الآثار عند جميع الأمم والشعوب وكان معروفاً ذائع الصيت ، فإنني
أميل إلي أصحاب الرأي الثاني والذين يقولون بأسبقية النثر للشعر
وأخص منهم رأي المرحوم الأستاذ محمد هاشم عطية والذي جاء فيه
أن ظهور الشعر في الأمم القديمة لا ينبغي أن يحمل علي شئ

^(١) دراسات في عصري الريادة / محمد العربي - ١٠٤ .

أكثر من أنه هو الذي وعته الصدور وتوارثته الأعقاب وظفر من
عناية الحفاظ وتناقل الرواة بما لا يظفر بشئ من مثله النثر ، فضاع
علي كثرته ولم يبق منه إلا القليل يوشك أن يكون شيئاً لا يذكر
بجانب ما حفظ من الشعر (١)

- كما توافرت للشعر عوامل ساعدته علي إحلاله محل النثر ووفرت
له الذبوع ، وساعدته علي البقاء ، فالشعر الجاهلي في كثير من
القبائل لا ينبع إلا مجرداً عن النفع وقد كانت القبيلة تنكر علي
الشاعر أن يقصر شعره علي ذات نفسه ومشاعره الشخصية .

- كما ساعد علي ظهور الشعر وانتشاره أنه كان طريقاً للتكسب ،
فالحياة الجاهلية فقيرة غالباً ، وغنية قليلاً هذا إلي جانب
الصراع والحروب التي تدور في معظمها حول أسباب العيش
الضيقة في بيئة يغلب عليها الجذب والقحط ، وقد وجد الشاعر سبيلاً
إلي الحياة في ظل قبيلته أولاً - إذ كان لسانه سيفاً معنوياً إلي جانب
السيف المادي في يد المحارب المناضل فإذا ضاقت سبل الحياة أو
الحصول علي مطلبه من الشرف وغيره تلمس سبيلاً خارج دائرة
القبيلة (٢) .

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ص ٦١ ط ٢ البابي الحلبي .

(٢) انظر ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده / درويش الجندي ص ١٩

- كما ساعدت كثرة العصبيات في الجاهلية علي حفظ الشعر بسرعة وسهولة لما في طبع الإنسان من إيثار الإيقاع في الأصوات ، وترديد نغمة لذت بها أذنه " كما أن العرب قوم أميون لم يرجعوا في تدوين حكمتهم وتخليد مآثرهم إلي رقم في رف ، أو نقر في حجر فأكسبهم ذلك التآني في الكلام وجودة الحفظ ومعاناة الرواية ، ولا تتمثل هذه الأمور في أمثل من الشعر .

- وإذا كان الشعر طريقاً للتعبير عن المشاعر ، فالنثر أيضاً طريق لإظهارها ، والتعبير عنها ، وإلا لو سلمنا أن الشعر هو الطريق الأوحده للتعبير عن المشاعر عند الشعراء ، فكيف يعبر غير الشعراء من الكثرة الهائلة من الناس ، وكيف تعبر عن ذلك القبائل التي لم توهب شعراء .

- وإذا كان النثر الفني يعبر عن حاجة الإنسان المتحضر كما يقال ، فهل يعني ذلك أنه لا يوجد في عصور البداوة من أهل الفصاحة من يعبر عن حاجته بأسلوب نثري . إذن ما بالنا نقرأ الكثير من الخطب والحكم والأمثال والوصايا ، وكلها من نتاج الجاهلية ، ولعلك تقول إنها قلة ، فأقول لك لعل الكثرة منها قد ضاعت كما ضاع الكثير من الشعر الجاهلي .

❖ الخلاصة : أنه لعلك أيها القارئ قد وجدت فيما ذكر أنفاً ما يبرر ما أريد قوله وهو وجود النثر قبل الشعر، وظهور الشعر قبل النثر .

obeikandi.com

الفصل الخامس

تجويد الشعر - معنى الكلمة

الأدب الجليل ، أقسامه

obeikandi.com

✽ العصر الجاهلي

تحديد العصر :

قد يتبادر إلي الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب وأزمنة ، فهو يدل علي الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده ، وهذا فهم خاطئ ، لأن الباحثين في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أي عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، أو علي أقصي تقدير قرنين أي مئتي عام . وما قبل ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى .

والباحثون في الأدب الجاهلي يقصرون هذا العصر علي تلك الفترة ويكتفون بها ، لأنها عندهم هي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءت عنها الشعر الجاهلي .

وقد لاحظ الجاحظ ذلك بوضوح فقال : (أما الشعر العربي فحديث الميلاد صغير السن أول من نهج سبيله وسهل الطريق إليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلل بن ربيعة ، فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له - إلي أن جاء الله بالإسلام - خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمئتي عام) ^(١) وما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول يكتنفه الغموض .

(١) الحيوان ج ١ ص ٧٤ طبعة الحلبي .

كلمة جاهلية :

ينبغي أن نعرف أن كلمة " جاهلية " التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه (١) وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهي تقابل كلمة الإسلام التي تدل على الخضوع والطاعة والانقياد لله عز وجل، وما يطوي فيها من سلوك خلقي كريم ، ودارت الكلمة في الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب .

قال تعالى : ﴿...أَتَعِدُّنَاهُمْ زُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (٢) ﴿١٧﴾
وقال أيضا : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣) ﴿٣٣﴾
وقال أيضا: ﴿وَيَعَاذُ الرَّحْمَنُ الَّذِي يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلْنَا﴾ (٤) ﴿١٣﴾

- وفي الحديث النبوي أن- رسول الله صلى الله عليه وسلم -
قال لإبي ذر وقد عير رجلاً بأمه " إنك امرؤ فيك جاهلية .

وفي الشعر الجاهل في جاء قول عمرو بن كلثوم التعلبي :
إلا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١) انظر مادة جاهلية في دوائر المعارف الإسلامية .

(٢) البقرة من الآية ٦٧ .

(٣) الأعراف الآية ١٩٩ .

(٤) الفرقان الآية ٦٣ .

- وواضح في هذا النصوص جميعاً أن الكلمة استخدمت من قديم للدلالة علي السفه والطيش والحمق ، وقد أخذت تطلق علي العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق علي العصر السابق له مباشرة ، وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرمه الدين الحنيف من موبقات (١) .

- ودائماً وأبداً نعني بدراسة الأدب الجاهلي خاصة الشعر ، لأنه لغة الحياة البدوية وصورتها ، والصوت المعبر عن آمال الإنسان وآلامه في كل وقت وعلي كافة المستويات .

فقد كان له دور عظيم في تسجيل مآثر العرب وحياتهم ورصد عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم قبل ظهور الإسلام ، فنحن لم نعش عصر الجاهليين ولم نرهم ، وإنما نعرفنا علي عقائدهم وصفاتهم وعاداتهم وصورة كل ما يدور بينهم مما أثر عنهم من قصائد أو مقطوعات شعرية .

ولذلك صدق من قال : (الشعر ديوان العرب) أي إذا أردت أن تتعرف علي العربي في بيئته وبيته وحياته الخاصة والعامّة وصفاته ومكارمه وأخلاقه سواء الحسنّة أو المذمومة فاقراً في شعر العرب تجد صدي ذلك واضحاً جلياً فيما تركوه من مقولات شعرية أو نثرية ما بين مثل وخطبة وحكمة الخ

(١) العصر الجاهلي / شوقي ضيف ص ٣٩

وأمام هذه المنزلة العالية للشعر والشعراء لم يملك التاريخ إلا أن يسجل من صنوف هذا الفن وألوانه ما ليس له نظير في حياة غير العرب من الأمم .

وحسبنا في هذا أن نشير إلي بعض ما أورده صاحب (العقد الفريد) في هذا الشأن لتعرف إلي أي مدى كان قدر هذا الفن في حياة العرب فقد قال : (ومن الدليل علي عظم الشعر عند العرب وجليل خطبه في قلوبهم أنه لما بعث النبي - صلي الله عليه وسلم - بالقرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه ، وأعجب قریش ما سمعوا منه قالوا : ما هذه إلا سحر وقالوا في النبي (صلي الله عليه وسلم) : (شاعر نتربص به ريب المنون) .

❦ الأدب الجاهلي قسماً :

(١) الشعر : وهو كما مر الكلام الموزون المعبر عن الأخيلا البديعة والصور البليغة ، وهو أقدم الآثار الأدبية لعلاقته بالشعور ، وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلي تعمق في العلم ، أو تقدم في المدنية .

(٢) النثر : وهو أيضا كما مر الكلام الخالي من الوزن والقافية مسجعاً كان أو غير مسجع .

والنثر أنواع منه المثل ، والخطبة ، والوصية ، الحكمة الخ

فالمثل : جملة مقتطعة من القول أو مرسلة بذاتها تنقل عن عمن وردت فيه إلي مشابهه بدون تغيير ، وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية .

والحكمة : قول رائع موافق للحق ، سالم من الحشو ، وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة .

والخطبة والوصية : كلتاهما يراد بها الترغيب فيما ينفع و عما يضر إلا أن الخطبة تكون علي ملأ من الناس في المجامع والمواسم ، والوصية تكون لقوم معينين في زمن معين .